مـجلـــة بـدايـــات
Revue :Bidayat
المجلد: الثامن / العدد: الثاني(02) /ماي2026/ص ص: 47-70

نقد القراءات التداولية المتعصّبة في دراسة البلاغة العربية
– قراءة تواصلية منصفة -

A Critique of Biased PragmaticReadings of ArabicRhetoric
– A Fair Communicative Perspective -

أ.د عبد القادر بن التواتي [*1]، أ.سليمة بن التواتي [2]
[1] جامعة الأغواط (الجزائر) –abd.bentouati@lagh.univ-dz–
[2] جامعة الأغواط (الجزائر) –S.bentouati@lagh.univ-dz–

تاريخ الإرسال:2026/02/01	تاريخ القبول:2026/05/08

مُلخّص البحث

إنّ الفصل العشوائي المتهوّر بين (البلاغة القديمة والبلاغة الحديثة)،لا يعكس الواقع الكامل لتطور العلوم البلاغية، فالبلاغة العربية كما جسدها علماؤنا الأوائل لم تكن مجرد مجموعة قواعد جمالية أو أسلوبية، بل إطار معرفي شامل يربط بين اللغة والمعنى، والأسلوب والسياق والفكر والتأثير، ومن هنا فإن استعمال مصطلحات مثل "البلاغة القديمة" و"البلاغة الحديثة" يحمل في طياته نوعا من التضييق والجهل بالإرث العلمي والجهود الرصينة التي بذلها العلماء في دراسة اللغة والخطاب.

فالبلاغة العربية لا تحتاج إلى تصنيف مزدوج بين قديم وحديث، بل إلى فهم شامل ومتعدد الأبعاد، يجمع بين التراث البلاغي الثري وأدوات التحليل الحديثة، بما يؤدي إلى إثراء البحث العلمي، وتعميق فهم اللغة والنصوص، وتوسيع آفاق التدريس والتطبيقات العملية، وهذا النهج ليس رفضا للتاريخ البلاغي، بل تكريمه واستكماله، مع تطويره بما يواكب الاحتياجات.

الكلمات المفتاحية : البلاغة العربية –التداولية –التكامل –الاختلاف .

Abstract:

The arbitrary and reckless division between what they call "ancient rhetoric" and "modern rhetoric" no longer reflects the full reality of the development of rhetorical sciences. Arabic rhetoric, as exemplified by our early scholars, was not merely a set of aesthetic or stylistic rules, but rather a comprehensive framework of knowledge linking language and meaning, style and context, thought and influence. Therefore, the use of terms like "ancient rhetoric" and "modern rhetoric" reflects a narrowing of perspective and a lack of understanding of the scholarly heritage and the rigorous efforts undertaken by scholars in the study of language and discourse.

Arabic rhetoric does not need a binary classification between ancient and modern, but rather a comprehensive and multidimensional understanding that combines the rich rhetorical heritage with modern analytical tools. This will enrich scientific research, deepen the understanding of language and texts, and broaden the horizons of teaching and practical applications. This approach is not a rejection of rhetorical history, but rather a veneration and continuation of it, while developing it to meet current needs

Keywords :Arabic rhetoric – pragmatics – integration – difference

*المؤلف المرسل:

تمهيد:

إنّ الإكثار من التعريفات النظرية للبلاغة العربية أو التداولية، على أهميتها التأسيسية لم يعد يضيف جديدا يذكر إلى الدرس العلمي المعاصر، بعد أن استنفدت هذه المسائل في مؤلفات موسوعية ودراسات متخصصة أفاضت في تتبع المفاهيم وتاريخ النشأة، وتطور المصطلحات، واختلاف المدارس والاتجاهات. ومن ثمّ، فإن إعادة اجترار ما استقر في المدونات البلاغية والتداولية لا يخدم الغاية العلمية لهذا البحث، ولا ينسجم مع طبيعة المشروع الذي يطمح إلى تجاوز الوصف إلى التحليل، وإلى الانتقال من التمهيد النظري إلى المقارنة المنهجية المنتجة.

وقد اعتمدت في هذا البحث منهجا تحليليا مقارنا، لا يقف عند حدود العرض التاريخي أو التوصيف المفاهيمي، بل ينفذ إلى البنى العميقة التي تحكم اشتغال البلاغة العربية والتداولية، من حيث التصورات المعرفية، وآليات تحليل الخطاب، وأنماط إنتاج المعنى، ووظيفة السياق ومقتضى الحال، فالمقارنة هنا ليست مقارنة شكلية بين مصطلحات متجاورة، ولا حصرًا لوجوه الشبه والاختلاف في جداول تصنيفية، وإنما هي مقارنة إبستمولوجية ووظيفية تسعى إلى الكشف عن مناطق الالتقاء الممكنة، ومواطن التباين الحقيقية، وحدود كل نسق حين يُفعل في تحليل النصوص والخطابات.

واقتضت هذه الرؤية المنهجية أن تأتي التعريفات الواردة في هذا البحث تعريفات مقتضبة ووظيفية، لا تروم الإحاطة الشاملة، وإنما تؤدي دورا تمهيديا يهيئ القارئ للدخول في صلب الموضوع، فهي تعريفات إجرائية تُستدعى بقدر ما تخدم التحليل والمقارنة، لا بقدر ما تستوفي شروط الموسوعية والاستقصاء. وهذا الإعتقاد لا يعكس تقليلًا من شأن الجهود السابقة، بل هو اعتراف ضمني بثرائها وكفايتها، وانصراف واعٍ إلى ما لم يُنجز بالقدر الكافي، وهو بناء جسور منهجية بين التراث البلاغي العربي والنظريات التداولية الحديثة.

البلاغة العربية من العلوم اللغوية العريقة التي ارتبطت منذ نشأتها الأولى بفهم الخطاب، وتحليل آلياته التأثيرية، لا من حيث بنيته الشكلية فحسب، بل من حيث علاقته بالمقام والسياق والمتلقي، وقد نشأت البلاغة في أحضان القرآن الكريم والتفسير والفقه واللغة، ثم استقلّت علميا مع عبد القاهر الجرجاني في نظريته في النظم، التي ربطت المعنى باللفظ فاللفظ يستمد عنده بلاغته من أنه ظل للمعنى، والمعنى يستمد مزيته من حيث إنه المادة الغفل التي يصوغها اللفظ[i] وهذا ما يجعل البلاغة في جوهرها علما تداوليا، قد تختلف في بعض مصطلحاتها بالمفاهيم التداولية الحديثة يقول صحراوي مسعود: يبدي جمهور النحاة العرب منذ عصر سيبويه، عناية ولا سيما النحويين الكبيرين عبد القاهر الجرجاني والرضي الإستراباذي بالارتباط التداولي بين الأسلوب، –خبراً كان أم إنشاء – وبين معناه الإبلاغي ووظيفته التواصلية حرصهما القوي والمتكرر الاهتمام بـ المعاني" و"الأغراض،الإبلاغية المتوخاة من الخطاب، وإصرارهما على أن البني التركيبية تابعة للوظيفة التواصلية وليس العكسف سلكا منهجاً تداولياً في تحليل الظواهر المبنوية التركيبية : كظواهر التقديم والتأخير

والتعيين، والإثبات والنفي ... والتي لا تعدو أن تكون أغراضاً وغايات تواصلية يسعى المتكلم إلى تحقيقها. وأما بلغة المعاصرين فهي (أفعال كلامية)[ii]

ومع تقدم الدراسات اللسانية الحديثة، ظهر التيار التداولي، وهو مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها "الخطاب ، والبحث عن العوامل التي تجعل من "الخطاب رسالة تواصلية واضحة" و " ناجحة ، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية.[iii]ومن هنا تطرح الدراسة إشكالية مركزية مفادها: إلى أي حد يمكن النظر إلى البلاغة العربية بوصفها نواة تداولية مبكرة؟، وما أوجه الالتقاء والاختلاف بين المنهجين؟

- **الإطار النظري للبلاغة العربية**
- **مفهوم البلاغة العربية**
- **لغةً واصطلاحًا**

تدور مادة "بلغ" في اللغة حول **الوصول والانتهاء**، ومنه البلاغ: إيصال المعنى إلى غايته[iv]. أما اصطلاحًا، فقد عرّفها البلاغيون بأنها: (**مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته**)إذ لا تتحقق بلاغة الخطاب بمجرد سلامة التراكيب أو جمال الألفاظ، بل بمدى انسجام القول مع المقام الذي قيل فيه ومدى ادراك المتلقي للخطاب وبالسياق الذي ينجز فيه.

البلاغة بين (اللفظ والمعنى)(والنّظم)

(اللفظ والمعنى) والنظم لا فرق بينهما فعبد القاهر الجرجاني الأشعري المذهب يأخذ بالنظم لأن كلمة النظم اصطلاح كان شائعا في بيئته(الأشاعرة)، وان كان يجري قبله على بعض ألسنة المعتزلة ..مثل الجاحظ الذي ألّف كتابا في نظم القرآن والقاضي عبد الجبار الذي تناول النظم بشيء من الدقة والتفصيل[v] وعبد القاهر لم يكن بدعا في الكلام عن النظم وتفصيلاته وسبله، لكنه كان صاحب الرؤية التي كفلت له أن يقترن اسمه بالفكرة ويكون علما عليها[vi] فالقيمة البلاغية تنشأ منالنظم وأن النظم هو تعلق معاني الكلم بعضها ببعض[vii]أو بين الألفاظ بحسب المعاني المقصودة، وهذا التصور يتوافق مع المبدأ التداولي القائل بأن المعنى لا يُستخلص من البنية وحدها، بل من استعمالها في سياق محدد.

- **البلاغة وسياق الخطاب**

1. تراعي البلاغة في نظم الكلام السياق ولا سبيل لبلوغ المرام إلا بضبط سياق الخطاب وانسجامه مع توخي النحو، وتوجيه الخطاب سواء أكان قرآنا أم خطابا عاديا، فالمعنى في التركيب العام هو الخطوة الأساسية ففي قوله تعالى:(قالت اليهود عزيرُ ابن الله)–بدون تنوين عزير– جعل أساس توجيه القراءة أعراب (ابن)على أنها صفة أو خبر ، لكن الذي حكم توجيهه كان المعنى باعتبار أن النفي ينصب على معنى الخبر لا الصفة....[viii] وهنا يعطي الجرجاني السياق الدور الأكبر في التقدير حال اللجوء إليها، أو استحالة تقديرها، وذلك تبعا للسياق الذي يحكم النص، ولا

يوقف عبد القاهر دور السياق على توجيه معنى كلمة فقط أو تأويل وجه إعرابي والوصول إلى معناه، بل يربط هذا السياق بحكم كونه كلاما منظوما بالبصمة الأسلوبية [ix] .

علوم البلاغة العربية

- **علم المعاني**

يُعنى علم المعاني بدراسة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، أو كما عرّفه القزويني هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال[x]والمراد بأحوال اللفظ ما يشمل أحوال الجملة وأجزائها، فأحوال الجملة كالفصل والوصل والإيجاز والاطناب والمساواة، وأحوال أجزائها كأحوال المسند إليه وأحوال المسند و أحوال المتعلقات الفعل، وهذه الأحوال هي التي يقتضيها الحال في اللفظ، فهي بعينها مقتضى الحال ويبحث في الخبر والإنشاء، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، وهي كلها قضايا ذات بعد تداولي، وهو ما يعتقده أوستين أيضا في مبدأ مطابقة الحال يقول: ان التلفظ بالعبرة لم يكن في الحقيقة فصيحا فقط بل غير مطابق لمقتضى الحال، أو هو على خلاف مقتضى الحالun happy ولهذا السبب فنحن نطلق على المذهب القائل بامكان اختلال نظم الكلام وعدم الاحتراز من الخطأ عند اعتبار مناسبة التلفظ بالعبارات مذهب عدم مطابقة مقتضى الحال[xi]infelicitie، ونجد في البلاغة العربية شرحا للقزويني في المفتاح لمطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، يقول: هذه المطابقة مقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلاف هو مقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الاطناب والمساواة وكذا خطاب الكي يباين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام[xii]

- **علم البيان :**

وهو علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه [xiii]قيّده السعد بأن يكون مدلولا عليه بكلام مطابق لمقتضى الحال، وإنما قيّده بهذا لأن اعتبار علم البيان إنما يكون بعد اعتبار علم المعاني، فلا بد من مراعاة علم المعاني في علم البيان، أما الجرجاني فيرى محاسن الكلام وجماله كله تعود إلى علم البيان (التشبيه والاستعارة والتمثيل) ، فإن هذه أصول كثيرة، كأن جل محاسن الكلام، إن لم نقل كلها متفرعة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها[xiv]وهذه الآليات لاتدرك إلا في ضوء المعرفة المشتركة بين المتكلم والمتلقي، وهو ما يُعرف تداوليًا بـ"**الخلفية المشتركة**"(sharedknowledge).

- **علم البديع**

وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة [xv]يعني بمعرفة وجوه تحسين الكلام تصور معانيها والعلم بأعدادها وتفاصيلها ومنشأ الحسن فيها، وهذه الوجوه هي المحسنات

المعنوية واللفظية، وإنما سميت محسنات لأنها ليست من مقومات البلاغة ولا الفصاحة، فالحسن الذي تحدثه عرضي وليس ذاتي، ومن القدماء من ذهب إلى ان علم البديع هو ما تحصل به المطابقة مع الفصاحة، فالحسن عنده سواء كان عرضيا أم ذاتيا أم معنويا من مقومات البلاغة، وليس هناك شيء يقتضيه الحال ، وشيء لا يقتضيه الحال ، فيكون علم البديع شاملا للعلوم الثلاثة.بل عدّه آخرون وسيلة لتقوية الأثر الحجاجي والجمالي للخطاب.

وظائف البلاغة العربية :

تتجاوز البلاغةالعربية الوظيفة الجمالية إلى وظائف تعليمية وإقناعية واجتماعية. فالخطاب البلاغي يسعى إلى التأثير في المتلقي وتوجيه سلوكه، وهو ما يجعل البلاغة علمًا تواصليًا بامتياز[xvi].

- **الإطار النظري للبلاغة التداولية**
- **التداولية – المفهوم والنشأة**

نشأت التداولية في سياق فلسفة اللغة، خاصة مع أعمال أوستين و تلميذه سيرل، يقول مسعود صحراوي:فقد أفرزت المعرفةنظريات ومفاهيم لغوية متباينة في الأسس المعرفية، انبثقت عنهاتيارات لسانية جديدة منها التيار التداولي، وهو مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها "الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من"الخطاب"رسالة تواصلية واضحة وناجحة، والبحث في أسباب الفشل فيالتواصل باللغات الطبيعية . . . الخ[xvii].

ويرى عبد القادر قنيني في مقدمة ترجمته لكتاب أوستين: والغرض من تقديم هذا الكتاب أن نعيد بناء المناخ الفكري الذيأسهم في تحديد فلسفة اللغة مع هذا الفيلسوف الانجليزي جون لانجشو أوستينJohn austinlangshawوذلك بمحاولة استقصاء المصادر والأصول النظرية التيهيمنت على كتابنظرية أفعال اللغة العامة وما يعرف بعنوان «كيف ننجز الاشياء بالكلام». والكتاب عبارة عن مجموعة من المحاضرات يعتبرها صاحبهاثورة في تحديد الفكر الفلسفي واللساني بوجه عام.[xviii] وينبغي التنبيه إلى تسمية التداولية ومسميات أخرى كالنفعية والذرائعية وغيرها يشير مسعود صحراوي أن التدوالياترجمة للمصطلحين المصطلح الإنجليزي pragmatics بمعنى هذا المذهب اللغوي التواصلي الجديد الذي تعرف به في هذه المقالة، والمصطلحla pragmatique بنفس المعنى، وليس ترجمة لمصطلح pragmatismeالفرنسي، لأن هذا الأخير يعني الفلسفة النفعية الذرائعية، أما الأول فيراد به هذا العلم التواصلي الجديد الذي يفسر كثيراً من الظواهر اللغوية كما أشرنا. ولذلك لانتفق مع الباحثين العرب الذين ترجموا مصطلح Pragmatics/ La Pragmatiqueبـ "
الذريعية " أو " الذرائعية" أو غيرهما من المصطلحات المتحافلة معهما[xix]

- **مفاهيم التداولية الأساسية**
- **أفعال الكلام:**

أصبح مفهوم الفعل الكلامي act Speech نواة مركزية في الكثيرمن الأعمال التداولية. وفحواه أنه كل ملفوظ ينهض على نظامشكلي دلالي إنجازي تأثيري. وفضلاً عن ذلك، يُعد نشاطاً ماديانحوياً يتوسل أفعالاً قولية LocutoiresActes لتحقيق أغراض إنجازيةillocutoiresActes كالطلب والأمر والوعد والوعيد ... الخوغايات تأثيرية PerlocutoiresActes تخص ردود فعل المتلقي،كالرفض والقبول(. ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلاتأثيرياً، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب، اجتماعياً أومؤسساتياً، ومن ثم إنجاز شيء ما[xx]

- **القصدية:**

مفهوم القصدية في إطار التحليل التداولي للتراث اللغوي العربي، لا بوصفه مفهوما نظريا مجردا، بل باعتباره قرينة تداولية حاسمة في تفسير الخطاب. وقد جعل قصد المتكلم معيارا أساسيا في التمييز بين الخبر والإنشاء، مبينا أن البنية التركيبية لا تكفي وحدها للحكم على نوع القول ما لم تستحضر نية المتكلم وغرضه من الاستعمال. ويكشف هذا التصور عن وعي تداولي مبكر لدى العلماء العرب، يتقاطع بوضوح مع المبادئ الحديثة لنظرية الأفعال الكلامية، ولا سيما ما يتصل بالقوة الإنجازية للفعل اللغوي، وذكر الأستاذ مسعود صحراوي من التداوليين من كان له رأي دقيق في فهم مقاصد الخطاب يقول:غير أن أحد علمائنا، هو إبراهيم الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ)، ويُعد من الأصوليين كان قد ذكر كلاما ينبئ عن تصور يؤسس لفكرة تداولية صريحة تعتمد هذا المعيار وحده..[xxi]ومنه فإن هلا يتحقق المعنى التداولي إلا بقصد المتكلم وتأويل المتلقي.

- **الاستلزام الحواري:**

لاحظ الفيلسوف غرايس،أن جمل اللغات الطبيعية في بعض المقامات تدل على معنى غير محتواها القضوي، ويتضح ذلك من خلال الحوار الآتي بين الأستاذين (أ) و(ب):

الأستاذ(أ): هل الطالب (ج) مستعد لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة؟

الأستاذ (ب) : إن الطالب (ج) لاعب كرة ممتاز.

لاحظ الفيلسوف غرايس أننا إذا تأملنا الحمولة الدلالية لإجابة

الأستاذ (ب) وجدنا أنها تدل على معنيين اثنين في نفس الوقت

أحدهما حرفي والآخر مستلزم معناها الحرفي أن الطالب (ج) من لاعبي الكرة الممتازين، ومعناها الاستلزامي أن الطالب المذكور ليسمستعداً لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة .(٢) هذه الظاهرة اللغوية سماها غرايس بـ الاستلزام الحواري Limpliction'conversationnelle[xxii]

- **السّياق**

السياق من المفاهيم المحورية في التداولية الحديثة، إذ يقوم هذا الحقل اللساني أساسًا على دراسة اللغة في الاستعمال، لا في بنيتها المجردة. فالمعنى التداولي لا يُستخلص من الدلالة المعجمية أو التركيبية وحدها، بل يُبنى من خلال تفاعل القول مع سياقه التخاطبي، وهو ما جعل التداولية تنتقل من سؤال: ماذا تعني الجملة؟ إلى سؤال أعمق: ماذا يُراد بها في مقام معين؟ .

وقد توسّع مفهوم السياق في التداولية المعاصرة ليشمل أبعادًا معرفية واجتماعية وثقافية، ومن هنا يتضح أن التداولية الحديثة قد منحت السياق مكانة مركزية في تحليل المعنى، وجعلته عنصرًا مكوِّنًا للدلالة، لا مجرد عامل مساعد ، وهذا ما يفتح مجالًا واسعًا للمقارنة بينها وبين البلاغة العربية، التي جعلت مطابقة الكلام لمقتضى الحال أساس البلاغة،وإن اختلفت المصطلحات والمنطلقات النظرية، فالسياق في التداولية، كما في البلاغة، هو الشرط الحاسم لفهم الخطاب وتحديد قيمته التواصلية.

- **تضمنات القول**:)Le Implicite(مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطا بالعامة كسياق الحال وغيره[xxiii].

–قراءة في مفاهيم التداولية الأساسية

أفعال الكلام تناول مسعودي صحراوي الفعل اللغوي، تحدث عن المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي، والمستوى الدلالي، وهي مستويات لا تخلو منها أي لغة، ويري أوستين أن الفعل الصوتي حسب كل لغة، والفعل التركيبي فيؤلف مفردات طبقاً لقواعد لغة معينة،وأما الفعل الدلالي فهو توظيف هذه الأفعال حسب معان وإحالات ويقدم مثالا:إنها ستمطر يمكن أن يفهم معنى الجملة، ومع ذلك لا ندري أهي: إخبار بـ« أنهاستمطر»، أم تحذير من عواقب الخروج في الرحلة أم ،« أمر بحمل مظلة»، أم غير ذلك .. إلا بالرجوع إلى قرائن السياق لتحديد قصد المتكلم أو غرضه من الكلام[xxiv] ورغم بساطة هذا الطرح في التواصل اللغوي، وطبيعته كحقيقة موجودة في كل اللغات وشرائح المجتمع يعلمها (المتعلم والجاهل) وتظهر السطحية أكثر عندما يتحدث عن النوع الثاني الفعل الإنجازي فيقول:ولذا اقترح أوستين تسمية الوظائف اللسانية الثانوية خلف هذه الأفعال: القوى الإنجازية ومن أمثلة ذلك: السؤال، إجابة السؤال، إصدار تأكيد أو تحذير،.....فالفرق بين الفعل الأول والفعل الثاني(ب) هو أن الثاني قيام بفعل ضمن قول شيء، في مقابل الأول الذي هو مجرد قول شيء[xxv]

فماذا لو كان الفعل الأول لم يقصد فيه المتكلم التحذير او دعوة لحمل مظلة ؟ وقد يكون الخطاب فردي غير موجه لسامع مطلقا، وهذا ينطبق أيضا على مبدأ الاستلزام الحواري، والقصد وغيره، ولعل هذا ما جعل بعض اللسانيين المحدثين يطلقون على التداولية بأنها سلة مهملا، وإن كان مسعود صحراوي يرفض هذا الادعاء بقوله: (إنها ليست سلة لمهملات اللسانيات[xxvi])ومع ذلك استمر في ربط جسور البلاغة العربية بالتداولية والتطبيع معها باعتبارها واقعا لا مفر منه.

- **البلاغة العربية في ضوء التداولية**
- **إعادة قراءة المفاهيم البلاغية**

يمكن تفسير الخبر والإنشاء بوصفهما أفعالًا كلامية، ولعل ما نقله مسعود صحراوي في كتابه التداولية عند العرب عن تقسيم الفاربي، وهو بصدد تقسيم أنواع المخاطبات، العبارات الكلامية الصادرة عن الإنسان إلى صنفين كبيرين هما:عبارات القول و عبارات الفعل، وقد ابتدأ مما ابتدأ منه الفيلسوف أوستين من اعتبار المخاطبات نوعين: أقوالا، وأفعالا تتم بالأقوال[xxvii].

يقول الفارابي : ... والقول الذي يقتضى بهشيء ما فهو يقتضى به إما قول ما، وإما فعل شيء ما. والذييقتضى به فعل شيء ما فمنه نداء، ومنه تضرع، وطلبة، وإذنومنع، ومنه حث، وكف، وأمر، ونهيولا يفوته أن يبين أن النطق بالقول هو فعل ما [xxviii] مع التذكير أن الفارابي من القرن الرابع الهجري(**870م–950م**) قد سبق أوستين وسيرل إلى مفهوم الملفوظ الإنجازي وغيره من المفاهيم التي تعد اكتشافا حديثا، ومن الطريف أن الفارابي يلتفت، منذ ذلك العصر المبكر، إلىمفهوم الملفوظ الإنجازي الذي يتحدث عنه أوستين وسيرل فيعصرنا والذي كثيراً ما يُقدّم على أنه اكتشاف حديث في كل من الفلسفة التحليلية والأبحاث التداولية المعاصرة. ويواصل كلامه:ويعبر الفارابي عنه بلفظ : القوة" force ، الذي هو من مقولات التداولية المعاصرة[xxix] ومن أراد المزيد فعليه بكتاب التداولية عند العلماء العرب تقسيم ابن سينا والجاحظ وغيرهم من البلاغيين العرب.

الاستلزام الحواري:

يقوم هذا المبدأ كما هو معروف عن أوستين وما يسميه بالحمولة الدلالية ، وقدم غريس في هذا المفهوم ملاحظات مفادها أن جمل اللغات الطبيعية في بعض المقامات تدل على معنى غير محتواها القضوي[xxx]، قدم غريس من خلال الحوار الآتي بين الأستاذين (أ)و (ب) الأستاذ (أ) : هل الطالب (ج) مستعد لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة؟

الأستاذ (ب): إن الطالب (ج) لاعب كرة ممتاز.

لاحظ الفيلسوف غرايس أننا إذا تأملنا الحمولة الدلالية لإجابة الأستاذ (ب)وجدنا أنها تدل على معنيين اثنين في نفس الوقتأحدهما حرفي والآخر مستلزم معناها الحرفي أن الطالب (ج) منالاعبي الكرة الممتازين، ومعناها الاستلزامي أن الطالب المذكور ليسمستعداً لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة .(٢) هذه الظاهرة اللغوية سماها غرايسب الاستلزام الحواري Limplic'conversationnelle[xxxi]لوصف هذه الظاهرة يقترح غرايس (١٩٧٥) نظريته المحادثية التي تنص على أن التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام)مبدأ التعاونو بمسلمات حوارية.والكلام هنا طويل شرح فيه الأستاذ منطلقات الاستلزام الحواري عند غريس واكتفي بنقل الشكل التوضيحي الذي أورده.[xxxii]

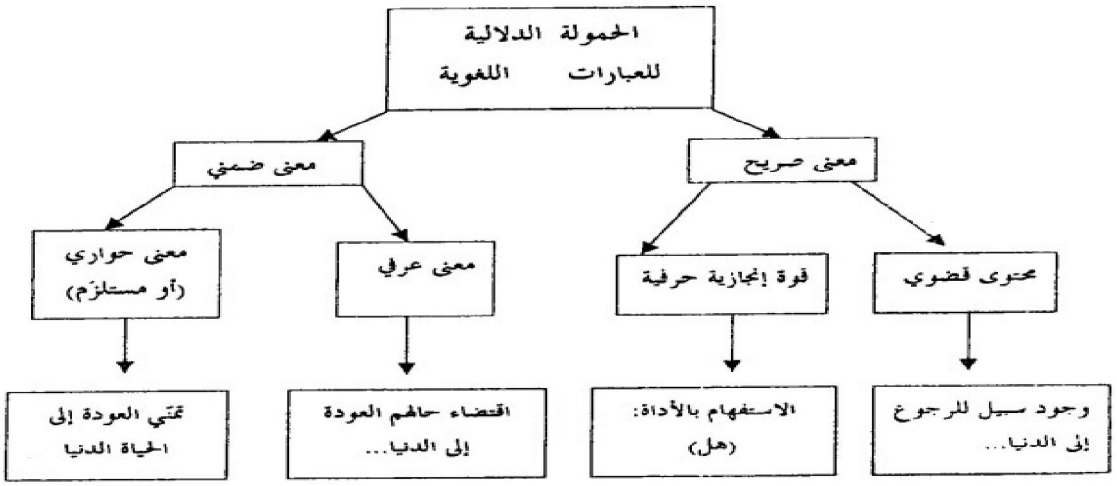

وبالرجوع إلى هذا المبدأ عند العرب نجد الامام الزركشي في البرهان لا يبتعد كثيرا عن هذا المفهوم، وإن كنت مقتنعا أن تحليلات الأصوليين والمناقطة العرب أكثر دقة ونفعا، ففي قوله تعالى: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ)قال الزركشي فإنه لو قيل (إنها لأمارة) لاقتضى تخصيص ذلك، فأتى بالظاهر ليدل على أن المراد التعميم، مع أنه برئ من ذلك بقوله بعده (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)، وقوله: (إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ولم يقل : (إنه) إما للتعظيم وإما لإستلذاذ[xxxiii]

ومن الأمثلة التي نسوقها لمظاهر الاستلزام الحواري في البلاغة العربية، الرجل الذي جاء إلى عمر بن الخطاب، يشكو عقوق ابنه، إذ عنف ابن الخطاب الولد على عقوقه لأبيه وأنبه على تمرده عليه ونسيانه لحقوقه.

فقال له: يا أمير المؤمنين، أليس للولد حقوق على أبيه؟ قال: بلى، قال: فما هي يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: أن ينتقي أمه ويحسن اسمه.. ويعلمه الكتاب، أي القرآن، قال الولد: يا أمير المؤمنين، إن أبي لم يفعل شيئا من ذلك، أما أمي فإنها زنجية كانت لمجوسي، وقد سماني: جُعَلا (خنفساء) ولم يعلمني من الكتاب حرفا واحدا..! فالتفت عمر إلى الأب وقال له: جئت إليَّ تشكو عقوق ابنك وقد عققته قبل أن يعقك .

هذا النص ليس مجرد حكاية أخلاقية، بل هو خطاب حِجاجي تداولي متعدد الأصوات، تتداخل فيه:

سلطة المتكلم (عمر بن الخطاب)

خطاب الشكوى

خطاب الدفاع

انقلاب الأدوار الحِجاجية

السياق التداولي(Context)

المشاركون:

الأب: متكلم أول، في مقام الشكوى.

الابن: متكلم ثانٍ، في مقام الدفاع والتبرير.

عمر بن الخطاب: قاضٍ، وسلطة تفسيرية عليا.

المقام:(Situation)

مجلس حكم

قضية أخلاقية – اجتماعية

افتراض مسبق: عقوق الأبناء أمر مذموم

الافتراضات الخلفية:(Presuppositions)

للأب حق الطاعة

الابن مُدان مبدئيًا

العقوق سلوك فردي نابع من الابن

تحليل الاستلزام الحواري وفق مبدأ التعاون لغرايس

غرايس يفترض أن المتحاورين يلتزمون ضمنيًا بـ مبدأ التعاون عبر أربع قواعد:

الكم – الكيف – العلاقة – الأسلوب

خطاب عمر للولد: توبيخ ظاهري واستلزام أخلاقي

عندما عنّف عمر الولد في البداية، كان خطابه مباشرا ظاهريا، لكنه يستلزم ضمنيًا:

أن الابن هو الطرف المخطئ

وأن العقوق انحراف عن القيم

هذا استلزام عرفي اجتماعي نابع من السياق لا من اللفظ.

سؤال الابن: خرق مقصود لقاعدة العلاقة

(يا أمير المؤمنين، أليس للولد حقوق على أبيه؟)

التداولي هنا:السؤال ليس استفهامًا حقيقيًابل هو فعل كلامي غير مباشر(Indirect Speech Act)

الاستلزام الحواري:

العقوق ليس سلوكا معزولابل نتيجة علاقة سببية سابقة

هنا يخرق الابن قاعدة العلاقة ظاهريًا (لأن النقاش كان عن عقوقه)، لكنه يفعل ذلك قصدًا ليُنتج استلزامًا حواريًا أعمق:

الحكم على السلوك لا يصح دون النظر إلى شروط نشأته

تعداد عمر لحقوق الولد: انتقال من الإدانة إلى التقويم

(أن ينتقي أمه، ويحسن اسمه، ويعلمه الكتاب)

هذه ليست إجابة تعليمية فقط، بل:

إطار تقويمي Normative Frame

يحدد معايير المسؤولية الأبوية

الاستلزام:

من أخلّ بهذه الحقوق لا يملك شرعية المطالبة الكاملة بالطاعة

وهذا استلزام غير منطوق، لكن السياق يفرضه.

ردّ الابن: خرق قواعد الكم والكيف لإنتاج المعنى

(أمي زنجية كانت بجوسي... وسماني جعلا... ولم يعلمني من الكتاب حرفا)

من منظور غرايس:

الكم: ذكر تفاصيل أكثر مما يُتوقع

الكيف: صدق مؤلم وصادم

الأسلوب: تصريح فجّ غير موارب

لماذا هذا الخرق؟

لإنتاج استلزام حواري قوي:

العقوق هنا نتيجة إهمال تربوي بنيوي

لا تمردًا أخلاقيًا فرديًا

حكم عمر: الاستلزام الختامي الأعلى

(عققته قبل أن يعقك)

هذه جملة قصيرة، لكنها تحمل استلزاما تداوليا كثيفا:

منطوقها:الأب عاق

مستلزمها: المسؤولية الأخلاقية متسلسلة

السلطة الأبوية ليست مطلقة

التربية شرط سابق للطاعة

وهنا يتحقق ما يسميه غرايس: الاستلزام الحواري القائم على السياق الثقافي والأخلاقي

يبيّن هذا النص أن البلاغة التراثية العربية كانت واعية، ضمنيًا، بمبدأ الاستلزام الحواري؛ إذ لم يُبنَ الحكم على منطوق الخطاب فحسب، بل على ما يستلزمه سياقه من علاقات سببية وتفاعلية. فقد انتقل عمر بن الخطاب من إدانة مباشرة للولد إلى مساءلة ضمنية للأب، بعد أن كشف خرق الأخير لشروط التعاون التربوي، مما أفضى إلى قلب الحجاج وإعادة توزيع المسؤولية الأخلاقية.ومبدأ الصيرورة بمعنى (أنت صيرته عاقا).

وهو ما يجعله مجالًا خصبًا لتحليل الاستلزام الحواري (ConversationalImplicature).

وهو ما يقره أوستين بالقوة الإنجازية الحرفية، وهي القوة الدلالية المؤشر لها..والمعاني الضمنية التي لا تدل عليها صيغة الجملةبالضرورة، ولكن للسياق دخلاً في تحديدها والتوجيه إليها.

وفي قوله تعالى:(فيقول ربي لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين)

- أما المحتوى القضوي فهو ناتج من ضم معاني مكوناتها.
- وأما قوتها الإنجازية الحرفية، والمؤشر لها بالأداة "لولا" تتضمن التمني، الدعاء، الطمع، التذلل،...وينتج معناها الصريح من ضم محتواها القضوي إلى قوتها الإنجازية الحرفية.
- والمعنى الضمني للجملة يتألف من معنيين جزئيين هما كالآتي:
- معنى عرفي هو الاقتضاء، أي اقتضاء حالهم الرجوع إلى الحياة الدنيا.
- معنى حواري استلزامي، وهو تمني المتكلمين من المخاطب الله تعالى أن يردهم إلى الدنيا[xxxiv]

نخلص إلى أن البلاغة العربية ليست علما وصفيا محصورا في تتبع الزخرفة اللفظية أو تصنيف المحسنات البديعية بل هي في جوهرها نظرية متكاملة في التواصل، تنظر إلى الخطاب بوصفه فعلا تداوليا، ينشئ داخل سياق ثقافي ومعرفي ونفسي محدد، ويقاس نجاحه بمدى تحقيقه لمقتضيات الحال، واستجابته لأفق المتلقي، فالبلاغة منذ عبد القاهر الجرجاني لم تبن على ترف شكلي وإنما على وعي عميق بعلاقة المعنى في التركيب، وبالربط العضوي بين الدال والمدلول، حيث يصبح النظم آلية لإنتاج الدلالة لا مجرد ترتيب لغوي. ومن ثمة فإن مفاهيم المطابقة والانجاز والاطناب، والتقديم والتأخير والحذف، لا تفهم بوصفها تقنيات تجميلية، بل باعتبارها اختيارات تواصلية واعية، تحكمها مقاصد المتكلم وشروط المقام.

كما أن تقسيم البلاغة إلى معاني وبيان وبديع لا يعكس تجزئة في الرؤية، بل تنويعا في زاويا النظر إلى فعل الخطاب ف(علم المعاني)يضبط العلاقة بين البنية والسياق، و(علم البيان) يعالج آليات التصوير ونقل المعنى من المباشر إلى المجاز، بينما يتكفل (علم البديع) بإدارة الأثر الجمالي والإقناعي داخل الخطاب، وبهذا المعنى تتقاطع البلاغة العربية مع مفاهيم حديثة للسانيات التداولية ونظرية التواصل مثل: القصدية، والملاءمة، والتأثير، دون تفقد من خصوصيتها المرجعية أو بعدها القيمي.

إن البلاغة العربية في عمقها النظري، تمثل علما للخطاب قبل أن تكون علما للزينة، وتؤسس لفهم تفاعلي للغة بوصفها ممارسة اجتماعية وثقافية، تبنى فيها الدلالية عبر التفاعل بين المتكلم والنص والمتلقي لا عبر اللفظ في عزلة عن سياقه، ولذلك فإن اعادة قراءة البلاغة في ضوء هذا الأفق التواصلي لا تعد تحديثا قسريا للتراث ، بل استعادة لروحه المعرفية الأصيلة التي جعلت من البلاغة علما للفهم والتأثير معا ، لا مجرد سجل للمحسنات والأساليب.

التطبيقات التحليلية

البلاغة العربية في ضوء التداولية – نماذج تطبيقية

هنا نسعى إلى الانتقال من التنظير إلى الممارسة التحليلية، عبر تطبيق المفاهيم التداولية على نصوص عربية قديمة وحديثة، لإبراز أن البلاغة العربية لم تكن معزولة عن السياق، بل قائمة عليه، وأن كثيرًا من الظواهر البلاغية لا يُفهم معناها التداولي إلا باستحضار المقام والقصد والمتلقي.

تطبيقات على النص القرآني

الخبر والإنشاء بين البلاغة والتداولية

–الانشاء (الأمر)

ومن أنواع الإنشاء الأمر والأظهر أن صيغته من المقترنة باللام نحو:(ليحضر زيد)وغيرها[xxxv] يقول مسعود صحراوي: أما الأمرفقد جعل له علماؤنا صيغاً اسمية وفعلية وأداتية،أما من الأدوات فقد جعلوا له حرفاً واحداً هو اللام الجازمة التي تدخل على الفعل المضارع فتجزمه، والتي سموها : "لام الأمر "[xxxvi]قوله تعالى:﴿**قل كونوا حجارة أو حديدا** ﴾الاسراء 50

يُصنَّف هذا الأسلوب بلاغيًا ضمن الإنشاء الطلبي (الأمر)، غير أن دلالته التداولية لا تُفهم على ظاهرها؛ فالأمر هنا غرضه الإهانة،[xxxvii] وقد نبّه البلاغيون إلى هذا المعنى تحت باب خروج الأمر عن معناه الأصلي[xxxviii]، بمعنى خروج الأمر عن دلالته الحقيقية إلى دلالة مجازية، وهنا صيغة الأمر في مقام عدم الاعتداد بشأن المأمور، واستعمالها فيها لعلاقة اللزوم، لأن طلب الشيء من غير قصد حصوله لعدم القدرة عليه مع – خسّته– يستلزم إهانة المأمور[xxxix]

أما تداوليًا، فإن هذا المثال يُجسّد ما يُعرف بالاستلزام الحواري؛ إذ إن المخاطَب يستنتج من السياق أن المقصود نقيض الظاهر، وهو ما ينسجم مع مبدأ غرايس في خرق قاعدة الكيف لغرض بلاغي.وخروج الأمر عن معناه الأصلي عند التداوليينوأما بحسب معايير ج. سيرل فإن المعيار المطبق، في خروج الأمر إلى الدعاء والالتماس، هو معيار الشروط المعدة " (conditions préparatoires)، وقد أوضحها سيرل بمثال الطلب " الصادر من عسكري برتبة عميد إلى جندي بسيط بتنظيف الغرفة، والذي الن يكون إلا أمراً"، أما نفس الطلب من الجندي البسيط " إلى العميد"، فهو قطعاً لن يكون أمراً بل هو طلب أو اقتراح أو رجاء[xl]

النتيجة:

يتضح أن البلاغة العربية سبقت التداولية في إدراك أن القوة الإنجازية للكلام تتحدد بالمقام لا بالبنية وحدها.

الحذف والإيجاز بوصفهما استراتيجية تداولية

وأجمل ما نتعرض له في باب الحذف ما ورد في القرآن الكريم من إشارات إلى بلاغته وأسباب تأثيره، فالحذف هو الإسقاط للتخفيف وفي القرآن من الحذوف العجيبة والاختصارات الفصيحة ما لايوجد في شيء من الكلام[xli] كقوله تعالى:﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم ﴾ البقرة 19﴿وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ وغيرها من الآيات الكريمة

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ يوسف82 إذ حُذف المضاف (أهل القرية) وقد علّل البلاغيون هذا الحذف بالإيجاز وشهرة المعنى[xlii].توظيف العموم والمراد هو الخاص لأنه جزء منها، وقوله:﴿وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾وبيان المحذوف والمواطن التي يكثر فيها الحذف فيذكر حذف المضاف وإقامة المضاف إليه[xliii]

أما تداوليًا، فإن هذا الحذف لا ينجح إلا لوجود معرفة مشتركة بين المتكلم والمتلقي، تسمح بإعادة بناء المعنى دون لبس. وهو ما يُعرف في التداولية بمبدأ الاقتصاد التداولي.،**وهو** استراتيجية تداولية لرفع كفاءة التواصل، لا مجرد تجميل بلاغي.

– أوجه الاتفاق والالتقاء المفهومي.

1- يتجلى أول أوجه الالتقاء المفهومي بين التداولية الحديثة والبلاغة العربية في المركزية المطلقة للسياق في إنتاج المعنى، إذ ينطلق كلا الحقلين من مسلّمة مفادها أن المعنى لا يُستخلص من البنية اللغوية المجردة، بل يتشكل من خلال الاستعمال داخل مقام تخاطبي محدد. فقد جعل البلاغيون العرب مطابقة الكلام لمقتضى الحال أساس البلاغة، كما صاغ ذلك السكاكي صراحة حين عرّف البلاغة بأنها «مطابقة الكلام لمقتضى الحال» ، وهو تعريف يلتقي من حيث الجوهر مع تصور التداولية للمعنى بوصفه نتاجًا للتفاعل بين القول والسياق. وبالمقابل، تؤكد التداولية الحديثة، منذ موريس وأوستن، أن فهم الملفوظ لا يتم إلا بإدراجه في سياقه الاستعمالي والاجتماعي

2-**الطابع الوظيفي للغة،** حيث لا تُدرس اللغة في البلاغة العربية ولا في التداولية بوصفها نظاما شكليا فقط، بل باعتبارها أداة لإنجاز الأفعال وتحقيق الأثر في المتلقي. فقد أدرك البلاغيون أن الغاية من اختيار الأسلوب هي التأثير والإقناع، وهو ما يتجلى في ربطهم بين الخبر والإنشاء وحال المخاطَب، كما أوضح القزويني عند حديثه عن درجات التوكيد تبعًا لموقف السامع . وهذا التصور يلتقي بوضوح مع نظرية أفعال الكلام عند أوستن، الذي اعتبر التلفظ فعلًا منجزًا يتحدد نجاحه أو فشله بشروط سياقية وهو ما يجعل اللغة ممارسة اجتماعية ذات وظيفة إنجازية.

3-**العناية بالمخاطَب ودوره في توجيه الخطاب،** حيث أولت البلاغة العربية أهمية كبرى لحال المخاطَب من حيث العلم والجهل والإنكار والقبول، وربطت بين هذه الأحوال وبين اختيار الصيغ والأساليب. وقد فصّل القزويني هذا التصور حين ميز بين المخاطَب خالي الذهن والمنكر، وجعل لكل حال مقتضاه البلاغي . ويقابل هذا في التداولية الحديثة مفهوم المعرفة المشتركة والافتراضات الخلفية التي يعتمد عليها المتكلم والمخاطَب في بناء المعنى، كما عند غرايس في نظريته حول الاستلزام الحواري، حيث لا يُفهم المعنى الضمني إلا بالرجوع إلى السياق المعرفي المشترك.

4-**التمييز بين المعنى الظاهر والمعنى المقصود،** وهو تمييز أصيل في البلاغة العربية من خلال مفاهيم مثل المجاز، والكناية، والتعريض، حيث لا يكون المقصود هو المعنى الحرفي المباشر. وقد أسّس عبد القاهر الجرجاني هذا التصور حين ربط المعنى البلاغي بالنظم والسياق، لا بالدلالة المعجمية وحدها . ويقابل ذلك في التداولية مفهوم المعنى الضمني أو الاستلزام، الذي يُستنتج اعتمادًا على السياق وقواعد التخاطب، لا على النص الصريح وحده.

5– **النظر إلى الخطاب بوصفه فعلا اجتماعيا، لا مجرد بنية لغوية**. فالبلاغة العربية، خاصة في تعاملها مع الخطاب القرآني والخطاب الإقناعي، كانت واعية بأثر المقام الاجتماعي والمؤسسي في توجيه المعنى، كما يظهر في ربط البلاغيين بين أسباب النزول ومقاصد الخطاب . وهذا الوعي يتقاطع مع ما ذهب إليه فان دايك في تحليل الخطاب التداولي، حيث جعل السياق الاجتماعي والإيديولوجي عنصرا مفسرا أساسا للمعنى.

ويتضح من مجموع هذه الأوجه أن البلاغة العربية والتداولية الحديثة، على الرغم من اختلاف منطلقاتهما التاريخية والمصطلحية، تلتقيان في رؤية مشتركة للغة بوصفها نشاطا تواصلياسياقيا، يتحدد فيه المعنى بالاستعمال، وتُقاس فيه القيمة اللغوية بمدى تحقيقها للغرض والتأثير. ويُفضي هذا الالتقاء إلى إعادة قراءة البلاغة العربية في ضوء التداولية، لا بوصفها تراثا لغويا منغلقا، بل باعتبارها مشروعًا نظريًا سابقًا لكثير من التصورات التداولية المعاصرة.

(المعنى الضمني)

| نص: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يوسف: 82
| النوع: قرآني |
| التحليل البلاغي: السؤال عن القرية يعني التحقيق من صدق الخبر |
| التحليل التداولي: استنتاج المقصود من السياق والمقام |

النتيجة: الحذف ليس نقصا في البنية، بل كما يراهالجرجاني عبد القاهر يقول عنه: فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة ازيد للإفادة، وتجدك انطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا اذا لم تبن[xliv] وعليه يعد فعلًا تداوليًا واعيًا يراعي كفاءة المتلقي.

تطبيقات على الحديث النبوي

أفعال الكلام في الحديث النبوي

حديث «أمك... ثم أمك... ثم أمك»: المقام أساس التوجيه البلاغي

جاء في الحديث الصحيح أن رجلًا سأل النبي □: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك(رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة.

يفهم هذا الحديث في القراءة السطحية على أنه تفضيل مطلق للأم على الأب بثلاث درجات، غير أن الإمام القرافي (ت. 684هـ) نبّه إلى بُعدٍ بلاغي تداولي دقيق، إذ قال إن تكرار ذكر الأم ثلاثًا لا يلزم منه التفضيل العددي، وإنما هو مراعاة لمقام السائل وحاله، لأن النبي □ علم من حاله أنه كان عاقًا لأمه، فاقتضى المقام التشديد والتنبيه بالتكرار.

وهذا التحليل يكشف أن:

- التكرار هنا وسيلة بلاغية تداولية لا تُفهم إلا في ضوء المقام.

- الخطاب موجَّه لشخص بعينه لا لتقرير حكم تجريدي مجرد.
- القوة الإنجازية للخطاب ليست الإخبار، بل التقويم والتأديب.

قال ﷺ(:الدِّينُ النَّصِيحَةُ) رواه مسلم

ظاهريًا، الحديث جملة خبرية، لكن قوتها الإنجازية تداوليا توجيهية – إلزامية، إذ تحث المخاطب على سلوك معيّن. وقد أشار البلاغيون إلى هذا النوع من الخبر الذي يُراد به الإنشاء وتداوليا، يندرج هذا المثال ضمن أفعال الكلام غير المباشرة، حيث تختلف الصيغة عن الوظيفة.

النتيجة: يتأسس الخطاب النبوي على أعلى درجات الوعي التداولي، تحقيقًا للتأثير والإقناع.

تطبيقات على الشعر العربي

السياق المقامي في الشعر

قول المتنبي: لا تَشتَرِ العَبدَ إِلّا وَالعَصا مَعَهُ إِنَّ العَبيدَ لَأَنجاسٌ مَناكيدُ

بلاغيًا: يقوم البيت على التعميم، لكنه تداوليا لا يُفهم إلا في سياق الهجاء والصراع السياسي. فالقصد هنا ليس تقرير حقيقة اجتماعية، بل فعل هجائي موجه لمخاطب معين.

– تطبيقات على الخطاب المعاصر

– الخطاب الإعلامي:

قول إعلامي شائع: (**الشارع يقول كلمته**) بلاغيًا، هذا مجاز مرسل، وتداوليا، هو إسناد قولي لجماعة صامتة بهدف إضفاء الشرعية على موقف معيّن. وهو ما يُعرف في التداولية باستراتيجية الإقناع غير المباشر.

- **الخطاب السياسي**

الاستعمال المكثف للتكرار والإجمال المقصود (سنحقق – سنواصل – سنواجه) يدخل بلاغيًا في الإطناب، وتداوليا في إدارة التوقعات وتأجيل الالتزام.

وفي هذا الجدول نقدم نموذجا يجمع بين البلاغة العربية والتداولية، ضمن أبرز مظاهر التكامل بين المنهجينوالأمثلة مأخوذة من التحليلات البلاغية والتداولية التي تناولها الدّارسون البلاغيون المحدثون.

جدول (1): التكامل بين التحليل البلاغي والتحليل التداولي

الظاهرة البلاغية	النص	النوع	التحليل البلاغي	التحليل التداولي
المجاز	﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ النبأ: 10	قرآني	الليل مجاز عن السكون والراحة، بما ينسجم مع حكمة الله في تنظيم الحياة	فعل كلامي غير مباشر، يُستنتج المقصود من السياق الكوني
الكناية	(الريح في الصحراء تُعلِّم الصبر)	شعري	الريح كناية عن المشقة والتحدي	استنتاج قيمة الصبر من السياق الطبيعي
التعريض	(من لا يعرف قدر نفسه هلك)	نثري	توبيخ غير مباشر للمخاطَب	استنتاج النصح والتحذير دون تصريح
المعنى الضمني	﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يوسف: 82	قرآني	السؤال موجّه لأهل القرية لا للبناء	استنتاج المقصود من المقام والسياق
الاستلزام الحواري	هل تستطيع إغلاق النافذة؟	حواري	استفهام صوري أُريد به الطلب	استلزام طلبي وفق مبدأ التعاون
الأمر التهديدي (فعل كلامي)	﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ الصافات: 24	قرآني	أمر مباشر يفيد الوعيد والتهديد في مقام الحساب	فعل كلامي إنجازي يُؤدّي وظيفة التهديد، ويُستخلص أثره من سياق الموقف الأخروي

- **البلاغة العربية بين القديم والجديد**

لقد أظهر البحث أن البلاغة العربية ليست مجرد إرث قديم، بل هي منهج متكامل قادر على الجمع بين القديم والجديد.

البلاغة التقليدية القديمة أسست مفاهيم المقام، التكرار المقصود، التدرج الإنشائي، والملاءمة بين الكلام والموقف.

أما البلاغة الحديثة أو التداولية الغربية فقد قدمت أدوات تحليلية وتقويمية لفهم القوة الإنجازية للفعل الكلامي، والإيحاءات غير المباشرة.

إن الجمع بين القديم والجديد ضمن مفهوم البلاغة العربية يعيد الاعتبار للتراث ويتيح تحليلا حديثا دقيقا للنصوص كلها الدينية، الأدبية، والسياسية، دون إسقاط أطر خارجية على خصوصية اللغة العربية.

- **الظلم الذي وقع على البلاغة العربية**

عانت البلاغة العربية من الإسقاطات التحليلية التي أُجريت باسم التداولية أو البلاغة الجديدة:
بعض الدراسات الحديثة قلصت البلاغة إلى مجرد أدوات جمالية أو نظرية شكلية، متجاهلة البعد الأخلاقي والتفاعلي.

وهناك محاولة لتقديم البلاغة القديمة على أنها جامدة، في مقابل البلاغة الجديدة باعتبارها وحدها صالحة للتحليل الحديث، رغم أنالبلاغة العربية كانت بالفعل تداولية في جوهرها، قادرة على التأثير والإقناع وفق مقام المخاطَب والنية المقصود، ومانجده في كتاب التداولية عند العلماء العرب يؤكد ذلك بقول مسعود صحراوي:ونعتقد نحن أن تطبيق هذا المفهوم التداولي على اللغة العربية سيسهم في وصفها ورصد خصائصها وتفسير ظواهرها الخطابية الإنتاج العلمي لعلمائنا التواصلية، كما نعتقد أن استثماره في قراءة

وتثمين جوانب من الجهود الجبارة التي بذلها أولئك العلماء الأجلاء ونزعم أن إجراء من هذا القبيل كان مندرجا ضمن النشاط العلمي الذيام به كثير منهم، وهذا ما يحاول هذا البحث إثباته، أو لفت الأنظار إليه على الأقلفال لغة العربية، شأنها شأن غيرها من اللغات الطبيعية، تشتمل على طائفة من الصيغ والأدوات التي يستعملها المتكلم للدلالة على القوة الإنجازية التي يريد تضمينها كلامه كالتقرير والاستفهام والتمني والإخبار والنفي والإثبات والطلب والترجي ... الخ[xlv]

- **الخلفيات وراء الدعوة إلى البلاغة الجديدة**

ظهرت الدعوة إلى البلاغة الجديدة كرد فعل على الدراسات الكلاسيكية ورغبة في تطبيق نظريات التداولية الغربية لكن هذا التحول تم غالبًا دون مراعاة الخصوصية الثقافية والفنية للنص العربي.

تجاهل العلماء الكبار الذين أسسوا مفاهيم البلاغة العربية العملية، مثل السكاكي، الجرجاني، والرضي...، الذين ركزوا على مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأثر التكرار، والملاءمة بين الكلام والمقام،ومن هنا يصبح مصطلح البلاغة العربية اليوم وسيلة لإعادة الاعتبار للتراث العربي وتقديمه بشكل حديث ومتجدد.

- **إنصاف علمائنا البلاغيين**

إن قراءة البلاغة العربية في ضوء التداولية الحديثة لا تهدف إلى إلغاء التراث أو محاكاة المنهج الغربي، بل إلى:

- تأكيد أصالة البلاغة العربية التي تجمع بين القديم والجديد.
- إبراز أن البلاغة العربية متعددة الأبعاد: لغويًا، جماليا، أخلاقيا، وتواصليا.
- إعادة الاعتبار للجهود العلمية للبلغاء الأوائل، وإثبات أن نصوصهم ما زالت صالحة لتحليل الخطاب المعاصر.

الرؤية المستقبلية للبلاغة العربية

- تطوير أطر معيارية عربية حديثة لتحليل النصوص وفق المقام، النية، التأثير الأخلاقي، والجمال اللغوي.

- توظيف البلاغة العربية في تحليل الخطاب السياسي، الإعلامي، التعليمي، والرقمي، بما يعزز القدرة على الإقناع والتأثير الاجتماعي.
- دمج القدرات القديمة مع أدوات التداولية الحديثة لإنتاج علم حديث للبلاغة العربية، يجمع بين أصالة التراث وعمق التحليل المعاصر.

– الخلاصة النهائية

يمكن القول: إن البلاغة العربية، التي تجمع بين القديم والجديد، تمثل مسارا علميا متكاملا:

- يحفظ الخصوصية الثقافية والفنية للنص العربي.
- ويمنح الباحث أدوات معيارية وتحليلية لتقييم الخطاب.
- ويعيد الاعتبار لعلمائنا البلاغيين، الذين أسسوا قواعد لا غنى عنها لفهم النصوص الدينية، الأدبية، والإعلامية المعاصرة.

وبذلك، تصبح البلاغة العربية التداولية أساسًا لتطوير نظرية عربية حديثة للبلاغة، صالحة لكل الزمان والمقام، ومهيأة لاستيعاب تحديات البحث المعاصر.

– قيمة التكامل بين البلاغة العربية والتداولية

التكامل في فهم المقام والسياق

أظهرت المقارنة أن المقام يمثل في البلاغة العربية مفتاحًا لفهم معنى النص وتأثيره، سواء كان قرآنا، أم حديثا نبويا، أم شعرا أم نثرا.

- البلاغة العربية توسّع المقام ليشمل حالة المخاطَب، النية، الموقف الاجتماعي، والأثر النفسي.
- التداولية الحديثة تقدّم أدوات تحليلية لفهم تأثير الخطاب على المتلقّي، الاستلزام الحواري، والأفعال الكلامية.
- التكامل بين المنهجين يمكّن الباحث من قراءة النصوص بعمق، مع مراعاة السياق، المقام، وفعالية الخطاب.

التكامل في القوة الإنجازية للخطاب

البلاغة العربية تؤكد أن الكلام ليس مجرد وسيلة نقل للمعنى، بل فعل يؤثر في النفس ويغير السلوك.

التداولية توفر أدوات تحليلية لتمييز أفعال الكلام (وعد، أمر، تحذير، تقرير، إلخ) وكيفية تحقيق الأثر المقصود.

بالتكامل، يمكن للباحث أن يحدد قوة النص الإنجازية، سواء في الخطاب الديني أو السياسي أو الإعلامي.

التكامل في البعد الأخلاقي والجمالي

البلاغة العربية لا تفصل بين الجمال اللغوي والبعد الأخلاقي، إذ كل صياغة تراعي الإقناع، التأثير، والملاءمة مع القيم الاجتماعية.

- التداولية تركز على فاعلية المعنى بالنسبة للمتلقّي، لكنها أقل اهتمامًا بالبعد الجمالي أو الأخلاقي.
- التكامل يسمح بتحليل خطاب يحقق الفاعلية دون أن يفقد قيمته الجمالية والأخلاقية، وهو أمر مهم جدًا عند دراسة النصوص الدينية أو الأدبية.

التكامل في التدرج والتنظيم البنيوي

التدرج الإنشائي، كما يظهر في القرآن أو الأحاديث النبوية، يوفّر خطوات تأثيرية من الأدنى إلى الأعلى (مثال: الإرشاد من النهي عن أقل الأفعال وصولا إلى الأمر بالقول الكريم.

التداولية الحديثة تساعد في تفسير أثر هذا التدرج على المتلقّي من حيث الفعل الكلامي والاستجابة المتوقعة.

التكامل يوضح كيف أن البنية اللغوية، التنظيم، والمقام تتضافر لتوليد تأثير أقصى على المخاطَب.

التكامل في التطبيقات المعاصرة

يمكن استخدام التكامل في تحليل الخطاب السياسي، الإعلامي، الرقمي، والتعليمي، مع القدرة على:

- تحديد الهدف من الخطاب
- فهم استراتيجيات الإقناع
- قياس فعالية النص
- استيعاب البعد الأخلاقي والجمالي.

مثال: تحليل خطاب سياسي يوضح كيف يستثمر المقام والتدرج والبلاغة الجمالية لتحقيق التأثير المطلوب على الجمهور.

- **القيمة النظرية للدمج**

يوفر التكامل بين البلاغة العربية والتداولية إطارا علميا متماسكا لدراسة أي خطاب، سواء كان قديما أو معاصرا.

يعيد الاعتبار للبلاغة العربية كعلم متعدد الأبعاد، ويتيح تطبيق أدوات التداولية الحديثة دون فقدان الأصالة الثقافية واللغوية.

يمكّن الباحثين من وضع أطر معيارية للتقويم والتحليل تشمل المقام، النية، التأثير الأخلاقي، والجمال اللغوي.

يمكن القول إن قيمة التكامل بين البلاغة العربية والتداولية تتمثل في:

- تعميق فهم النصوص من جميع أبعادها: لغوي، أخلاقي، جمالي، وتواصلي،

- توسيع نطاق التحليل ليشمل النصوص الكلاسيكية والمعاصرة،
- إنتاج علم حديث للبلاغة العربية يجمع بين الأصالة والحداثة، النظرية والتطبيق، ويعيد الاعتبار لجهود علماء البلاغة العرب.

خاتمة :

في ختام هذا المقال، يتضح أن الإشكال لا يكمن في التداولية الحديثة نفسها، بوصفها أفقا معرفيا يتيح أدوات تحليلية فعّالة لفهم الخطاب، وإنما في بعض القراءات التداولية المتعصبة التي تعاملت مع البلاغة العربية بمنطق الإقصاء أو التبسيط المخل، فاختزلت تراثا بلاغيا غنيا في تصنيفات ضيقة، وأخضعته لقوالب نظرية جاهزة لا تراعي خصوصياته المعرفية والتاريخية. فالبلاغة العربية لم تكن علما شكليا جامدا، بل علما قائما على الوعي بالسياق، ومراعاة المقام، وتقدير قصد المتكلم وأثر الخطاب في المتلقي، وهي مبادئ تتقاطع في جوهرها مع كثير من مرتكزات التداولية الحديثة.

ومما يزيد الإشكال حدّة ما نراه اليوم من نزوع بعض الدارسين إلى استبدال المصطلحات البلاغية العربية بمصطلحات تداولية حديثة، ليس على سبيل التفاعل أو الترجمة الدقيقة، بل على نحو إقصائي يوحي بأن المفاهيم البلاغية القديمة لم تعد صالحة، فالمقام البلاغي يعاد تسميته بالسياق التداولي، والنظم يستبدل بالفعل الكلامي أو بالبنية الإنجازية، والقصد يعاد صياغته في إطار النية التواصلية، مع تجاهل أن هذه المفاهيم تأسست نظريا منذ الجرجاني والسكاكي وغيرهما، وهذا التحوّل لا يمثل تجديدا معرفيا بقدر ما هو ظلم منهجي ومعرفي لتراث بلاغي أصيل، ينزع من سياقه التاريخي، ويعاد تقديمه كما لو كان اكتشافا جديدا.

ومن ثم، فإن القراءة التواصلية المنصفة هي وحدها القادرة على إعادة التوازن: قراءة تحترم العمق التاريخي للبلاغة العربية، وتستفيد من التداولية الحديثة في إطار شراكة معرفية، لا في إطار تبعية أو إلغاء، فالتجديد الحقيقي لا يتحقق عبر القطيعة مع التراث أو الانبهار بالنظريات الوافدة، بل عبر قراءة واعية تنصف الماضي، وتستوعب الحاضر، وتعيد للبلاغة العربية فاعليتها التداولية بوصفها علما للخطاب والتواصل، قبل أن تكون علما للجمال اللفظي وحده، وهنا أتقدم بجزيل الشكر للأستاذ الدكتور صحراوي مسعود وكتابه (التداولية عند العلماء العرب) الي يعد جسرا معرفيا أثبت من خلاله أن البلاغة العربية لم تكن مجرد فنون بيانية، بل كانت تداولية سابقة لعصرها، فقد كشف الدكتور صحراوي بكفاءة عالية كيف أن علماءنا القدامى وضعوا أسس (فعل الكلام) ومقاصد المتكلم قبل النظريات الغربية الحديثة بقرون؛ حيث ربطوا بين النص وسياقه، وبين المتكلم والمخاطب (مقتضى الحال). هذا العمل لا يُعيد الاعتبار للتراث العربي فحسب، بل يُثبت أن المفاهيم التداولية الحديثة مثل (المقاصد) و(الإنجازية)كانت نابضة في فكر النحاة والبلاغيين العرب، مما يجعل من كتابه مرجعا أساسيا لكل باحث يصبو لفهم عبقرية البلاغة العربية في ثوبها الوظيفي المعاصر.

الهوامش :

[1]– الجرجاني، –أسرار البلاغة –شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة القاهرة، ج1 ، ص 26

[2]–مسعود صحراوي –التداولية عند العلماء العرب ، دالطليعة للطباعة والنشر –بيروت– 2005،ص225

[iii]–المرجع نفسه، ص5

[iv]– ابن فارس، مقاييس اللغة، 1979، ج1، ص 302

[v]–عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر –الفجلة القاهرة،ص358

[vi]–محمد سعد شحاتة ، النظم والتأويل في الفكر البلاغي العربي، نادي تراث الإمارات2012 ،ط1، ص44

[vii]–الجرجاني ، –أسرار البلاغة –شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة القاهرة، ج1 ص32

[viii]–محمد سعد شحاتة ، النظم والتأويل في الفكر البلاغي العربي، نادي تراث الإمارات2012 ،ط1، ص54

[ix]–المرجع نفسه ط1، ص55

[x]–عبد المتعال الصعيدي–بغية الايضاح لتلخيص المفتاح–مكتبة الأدب القاهرة ، ط19–2017 ج1–ص33

[xi]–اوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام ، ترجمة عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق ص27

[xii]– عبد المتعال الصعيدي–بغية الايضاح لتلخيص المفتاح–مكتبة الأدب القاهرة ، ط19–2017 ج1–24–25

[xiii]–المرجع نفسه ج3، ص379

[xiv]–الجرجاني ، –أسرار البلاغة –شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة القاهرة، ج1 ص120

[xv]– عبد المتعال الصعيدي–بغية الايضاح لتلخيص المفتاح–مكتبة الأدب القاهرة ، ط19–2017 ج4–ص571

[xvi]– طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، 2000، ص 77

[xvii]– مسعود صحراوي –التداولية عند العلماء العرب ، دالطليعة للطباعة والنشر –بيروت– 2005،ص5

[xviii]–عبد القادر قنيني نظرية افعال الكلام العامة–كيف تنجز الاشياء بالكلام– أفريقيا الشرق ص5

[xix]– مسعود صحراوي –التداولية عند العلماء العرب ، دالطليعة للطباعة والنشر –بيروت– 2005،ص15

[xx]– المرجع نفسه 2005،ص40

[xxixi]- مسعود صحراوي –التداولية عند العلماء العرب – دار الطليعة 2005، ص78

[xxii]– المرجع نفسه ،ص33

[xxiii]–المرجع نفسه ،ص30

[xxiv]– المرجع نفسه ، ص41–42

[xxv]– المرجع نفسه ، ص42

[xxvi]– المرجع نفسه ، ص42

[xxvii]– المرجع نفسه ،ص 27

[xxviii]– المرجع نفسه ،ص87

[xxix]– المرجع نفسه ص87

[xxx]– المرجع نفسه ،ص33

[xxxi]– المرجع نفسه ،ص33

[xxxii]– ،المرجع نفسه ص36

[xxxiii]– بدر الدين الزركشي–البرهان في علوم القرآن ، تح محمد أبو الفضل ابراهيم دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان ج2ص495

[xxxiv]–هنا اسقاط مستويات الدلالة عند أوستين على الآية الكريمة كما وردت في كتاب التداولية عند العلماء العرب لمسعود صحراوي في مثاله هـ(ل إلى مرد من سبيل) ص35

[xxxv]–عبد المتعال الصعيدي–بغية الايضاح لتلخيص المفتاح–مكتبة الأدب القاهرة ، ط19–2017 ج1–269

[xxxvi]–مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب ، دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت– 2005 ، ص101

[xxxvii]–عبد المتعال الصعيدي–بغية الايضاح لتلخيص المفتاح–مكتبة الأدب القاهرة ، ط19–2017 ج1–270

[xxxviii]– القزويني، الإيضاح، 2003، ص 312

[xxxix]–المرجع السابق ،ج1،ص270 الحاشية

[xl]–مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب ، دار الطليعة للطباعة والنشر– بيروت – 2005 ، ص107

[xli]–الشريف المرتضي ، امالي المرتضى ، طبعة دار احياء الكتب العربية ، ج3، ص157

[xlii]– الجرجاني، دلائل الإعجاز، 1992، ص 146

[xliii]– محمد حسنين أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، دار الحمامي للطباعة ص118

[xliv]– محمد حسنين أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، دار الحمامي للطباعة ص119

[44]– مسعود صحراوي ، ص6

مصادر ومراجع البحث

1. الجرجاني، –أسرار البلاغة –شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة القاهرة،
2. مسعود صحراوي –التداولية عند العلماء العرب ، دار الطليعة للطباعة والنشر –بيروت– 2005،
3. ابن فارس، مقاييس اللغة، ،تحق عبد السلام محمد هارون،دار الفكر1979.
4. عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر –الفجلة القاهرة،
5. محمد سعد شحاتة ، النظم والتأويل في الفكر البلاغي العربي، نادي تراث الإمارات2012 ،ط1،
6. الجرجاني ، –أسرار البلاغة –شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة القاهرة،
7. عبد المتعال الصعيدي–بغية الايضاح لتلخيص المفتاح–مكتبة الأدب القاهرة ، ط19–2017
8. اوستين، نظرية أفعال الكلام العامة،كيف ننجز الأشياء بالكلام ، ترجمة عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق
9. الجرجاني ، –أسرار البلاغة –شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة القاهرة،
10. عبد المتعال الصعيدي–بغية الايضاح لتلخيص المفتاح–مكتبة الأدب القاهرة ، ط19–2017
11– عبد القادر قنيني نظرية افعال الكلام العامة– كيف تنجز الاشياء بالكلام– أفريقيا الشرق
11. بدر الدين الزركشي–البرهان في علوم القرآن ، تح محمد أبو الفضل ابراهيم دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان
12. عبد المتعال الصعيدي–بغية الايضاح لتلخيص المفتاح–مكتبة الأدب القاهرة ، ط19–2017
13. الشريف المرتضي ، امالي المرتضى ، طبعة دار احياء الكتب العربية ،
14– الجرجاني، دلائل الإعجاز، 1992،
15– حمد حسنين أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، دار الحمامي للطباعة.